تطور الوجود العربي في صحارى فزّان ما بين القرنين الأول و السادس الهجريين/ السابع و الثاني عشر الميلاديين

صباح إبراهيم الشيخلي*

* حصلت على الدكتوراه في تاريخ المغرب وافريقيا الوسيط من جامعة مانشستر بلندن عام ١٩٨١ .
تعمل مدرسة في قسم التاريخ بكلية الآداب ـ جامعة بغداد .

الملخص

لعبت فزان ـ رغم وقوعها على أطراف الصحراء ـ دوراً مهماً في التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى، ذلك لأنه منذ وصول العرب إلى هذه المنطقة في العقد الثالث من القرن ١ هـ/٧م أصبحت مكاناً لالتقاء العرب بالبر بر. وفي هذا البحث حاولنا أن نسلط الأضواء على العوامل التي دفعت العرب إلى التغلغل إلى هذه المنطقة؛ سواء أكانت بشرية أم تجارية أم سياسية. فالعامل البشري كان متمثلاً باندفاع القبائل العربية الهلالية جنوباً في منتصف القرن ٥ هـ/١١م، دافعة أمامها البر بر إلى عمق الصحراء. والعامل التجاري تمثل بزيادة رغبة العرب في الاندفاع إلى الصحراء وما وراءها سعياً وراء توسيع نشاطهم التجاري، أما العامل السياسي فقد قام على انسحاب بعض المجموعات السياسية بعد فشلها في الشمال.

وحدث ما هو أهم من ذلك بعدئذ؛ إذ بعد وصول العرب إلى فزان أصبحت المنطقة مجالاً للاختلاط العربي ـ البربري، ومن ثم قاعدة لانطلاق العناصر الفزانية (العربية البربرية) جنوباً وغرباً. وكان اندفاع الموجات البشرية هذه المرة مستنداً إلى عوامل جغرافية بشرية وتجارية. فصحراء فزان كانت منطقة مفتوحة تساعد على تغلغل القبائل البدوية ـ العربية منها والبدوية ـ بحثاً عن الماء والمرعى الخصب؛ فعندما وصلت القبائل الهلالية في القرن ٥ هـ/١١م إلى صحراء فزان، سرعان ما انسحبت القبائل البدوية الموجودة هناك نحو الجنوب والغرب، وشجعها على ذلك وجود تجارة نشيطة عبر الصحراء إلى الجنوب، فتغلغلت المجموعات البشرية إليها.

تحتل فزان في خريطة الصحراء الإفريقية مكاناً ممتازاً. فهي المنطقة الواقعة بين طرابلس شمالا وتبستي Tibesti جنوباً. والمعروف عنها أيضا أنها منطقة صحراوية تتناثر فيها الواحات، بل توجد فيها أكبر مجموعة واحات في الصحراء الكبرى، وهذا ما جعلها أغنى المراكز الصحراوية وأكثرها سكانا. (مؤنس، ١٩٦٩: ٦٩، ٨٣). كما أن موقعها الجغرافي قد جعلها معبراً عظيماً من شرق القارة الافريقية إلى غربها وبالعكس، ومن شمالها إلى قلبها ووسطها. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الصحراء ـ ليست دائما ـ كما يظن البعض مظهراً للعزلة والفصل، وإنما هي في حالات كثيرة أداة للربط والاتصال عبر الواحات المتناثرة فيها. وهكذا كانت فزان منطقة صحراوية مفتوحة تساعد على تنقل القبائل البدوية بسهولة. فهي في الفترة موضوع البحث جزء من الصحراء المغربية جغرافيا وبشريا. فمن الناحية الجغرافية ـ كما وصفها الجغرافيون العرب في العصر الوسيط ـ كانت الصحراء المغربية عبارة عن أرض رملية منبسطة واسعة وقاحلة، وان مناخها هو مناخ حار للغاية، ولا يتوفر فيها إلا ينابيع قليلة، وبخاصة في مناطق الجبال، وقد قاد هذا إلى تجانس مؤكد بين سكانها، الذين كانوا جميعاً من البدو والرعاة. ولم تكن الظروف بالطبع مواتية ويسيرة للبدو والصحراويين، ولهذا فقد اضطروا للتجول من مكان إلى آخر بحثا عن الماء والمرعى الخصب لقطعانهم ومواشيهم التي كانت العمود الفقري لحياتهم. وعلى ذلك فقد احتلت فزان دورا مهما في إيصال الإسلام والعروبة إلى أجزاء القارة الافريقية كما سنفصل أدناه.

عرف العرب المسلمون صحراء فزان منذ وقت مبكر جداً في التاريخ الإسلامي. ومع أن بداية وصول العرب إلى فزان كان مع دخولهم إلى مناطق برقة وطرابلس عام ٢٢هـ/ ٦٤٢م، حيث بعث عمرو بن العاص عقبة بن نافع لفتح زويلة[١]، إلا أن الحملة الواسعة على فزان والتي ارتبطت باسم القائد العربي عقبة بن نافع الفهري، لم تتم إلا في عام ٤٦ هـ/٦٦٦م. ففي هذه السنة استطاع عقبة ـ كما سجل لنا ذلك ابن عبد الحكم ـ القيام بحملة عسكرية حملته إلى الجنوب وبالذات إلى مناطق فزان وكوار (إلى الجنوب من فزان) (ابن عبد الحكم، ١٩٢٠: ٤ ـ ١٩٥) حيث أدب القبائل المتناثرة في الصحاري الجنوبية وأخضعها لحكم العرب بشكل ثابت، وأدخلها للإسلام بصفة نهائية. ولهذا يمكن القول ـ إن صح التعبير ـ بأن عقبة بحملته هذه قد جعل العرب معروفين لسكان الصحراء وفتح الطريق أمامهم للوصول بنشاطاتهم السياسية والتجارية والدينية إلى تلك المناطق في الفترات التالية.

في دراستنا لتطور الوجود العربي في صحاري فزان حتى القرن السادس الهجري ـ الثاني عشر الميلادي[٢]، سوف نفترض، وعلى ضوء الأدلة التاريخية المتوفرة لدينا في الوقت الحاضر، بأن صحراء فزان كانت لقاء بين القبائل العربية والبربرية، ومن ثم قاعدة لانطلاق عدد من الموجات البشرية باتجاه الغرب والجنوب. ومن خلال هذه الحركة البشرية التي أدّت إلى انتشار القبائل العربية والبربرية على نطاق واسع في المناطق الصحراوية نحاول أن ندرس جملة عوامل ساعدت على هذا الانتشار منها بشرية، سياسية واقتصادية (تجارية)[٣].

لقد أدى التدفق العربي البشري منذ القرن الأول الهجري إلى مناطق برقة وطرابلس إلى اختلاط العرب ببربر هذه المنطقة (اليعقوبي، ١٨٢٢: ٣ـ٣٤٤، ٣٤٧)، وبالتالي إلى دفع بعض البربر المتعربين، بصورة بطيئة من الشمال باتجاه الصحراء جنوبا. ففي المنطقة الصحراوية لودان

(جنوب سرت وطرابلس) لاحظ اليعقوبي وجود «قوم مسلمين يدعون أنهم عرب من اليمن وأكثرهم من مزاتة». (اليعقوبي، ١٨٨٢ : ٣٤٥) إن هذه الرواية تدعونا إلى القول بأنه لولا وصول العرب أو البر بر المتعربين إلى صحراء ودان في فترة مبكرة، وتعرف قبائل مزاتة البر برية عليهم واحتكاكهم بهم، لما ادعت الأخيرة النسب العربي.

ومن ناحية أخرى، فقد كان لانتشار عقيدة الخوارج، وإشاعتها الفوضى السياسية في المغرب خلال القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي بين عدد من القبائل البر برية، ومن بينها زناتة وكتامة وهوارة (اليعقوبي، ١٨٢٢ : ٣٤٤)، (ابن خلدون جـ٦، ١٩٦٧ ـ ١٩٦٩ : ٢٢٢)، أن قامت الدولة العباسية بالتصدي للحركة الخارجية، وقد تم اندحار الخوارج الأباضية سياسياً في طرابلس والقيروان على يد الحاكم العباسي محمد بن الأشعث الخزاعي (١٤٤ ـ ١٤٨هـ)[٤]. ولكننا نتبين من المصادر العربية الوسيطة أن الخوارج اعتادوا على اللجوء إلى مناطق العزلة في الصحراء والجبال والجزر للاحتماء بها حيثما عانوا أي ضعف أو فشل في حركتهم. وربما كان من بين المجموعات الأباضية التي انسحبت إلى الصحراء تلك التي استقرت في مدينة زويلة، عاصمة فزان، وترأسها شخص يسمى عبدالله بن حيان الأباضي. وينفرد ابن عذارى بالإشارة إلى هذه المجموعة الأباضية، وإلى الحملة التي وجهت من قبل ابن الأشعث في عام ١٤٥هـ/٧٦٢م لقمع الحركة. (المراكشي، ١٩٦٧، ج ١ : ٧٣) وتعني هذه الرواية أن الجماعة الأباضية كانت قد تغلغلت إلى فزان، منذ النصف الثاني للقرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي.

كما أن هناك مجموعات من قبائل هوارة قد اندفعت إلى صحراء فزان. ومع أن تاريخ حركتهم إلى فزان غير معروف، ولكن يبدو أن انتقال هوارة كان مرتبطا مع تغلغل العقيدة الأباضية في الصحراء. ففي القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، كانت هوارة المتعربة (التي اختلطت مع العرب الأوائل الذين استقروا في الشمال) قد حققت اندفاعات سريعة باتجاه فزان. وقد أخبرنا الجغرافي العربي الإدريسي بأن بنى الخطاب الهواري كانوا قد استقروا في زويلة، وأن المدينة نفسها قد أصبحت عاصمة لملكتهم في المنطقة في بداية القرن ٤هـ/ ١٠م[٥]. وفي فزان كانت هوارة قد التقت بقبائل لمطة البر برية وعاشت معها وأصبحت كلا القبيلتين تحت نفوذ الخوارج الأباضية (اليعقوبي، ١٨٢٢ : ٣٤٥)، (ابن خلدون جـ٢، ١٩٦٧ ـ ١٩٦٩ : ٢٨٥)، (Norris, 1975 : 11). وهكذا نجد أن العوامل البشرية والسياسية والدينية لعبت دورا مهما في اندفاع القبائل العربية والبر برية إلى صحراء فزان في القرون الإسلامية الأولى. ولكن فزان في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي شهدت تدفقا عربياً بشرياً اكثر وضوحاً كما سنرى.

قبل كل شيء لا بد من الإشارة إلى أن المغرب وفي منتصف القرن ٥ هـ/ ١١م، شهد هجرة أعداد كبيرة جدا من القبائل العربية قادمة من مصر عرفت في التاريخ باسم القبائل الهلالية (وهي خليط من القبائل العدنانية والقحطانية التي كانت قد استقرت في الحوف الشرقي من مصر منذ القرن ٢هـ/٨م)[٦]، ومن ثم انتشرت في كل أنحاء المغرب واستقرت في مدنه وقراه، ثم اندفعت جنوباً

مكتسحة أمامها بعض القبائل البربرية إلى الصحراء. فقد شهدت الصحراء جنوبي برقة وطرابلس، تدفق أعداد كبيرة من القبائل الهلالية (لا سيما من بني سليم). فبعد قرن من تدفق الهلاليين العرب إلى المغرب والصحراء، يصف الإدريسي القبائل العربية التي امتلكت صحراء فزان، وكيف استطاعت الانتشار والاستقرار فيها وإخضاعها للسيطرة العربية. ولعل نص الإدريسي التالي خير من يدعم قولنا عن التقدم الهلالي في صحارى فزان حيث يقول:

« ومن أوجلة إلى مدينة زالة عشر مراحل غربا وهي مدينة صغيرة ذات سوق عامرة وبها أخلاط من البربر من هوارة وتجارات. . . ومن زالة إلى مدينة زويلة عشرة أيام وبين زالة وزويلة مدينة صغيرة تسمى مستيح ومن زالة إلى أرض ودان ثلاثة أيام. وودان جزائر نخل متصلة وعمارات كثيرة ومن زالة إلى مدينة صرت تسعة أيام ومن مدينة صرت إلى أرض ودان خمس مراحل وودان هذه في جنوب صرت. . ومنها يدخل إلى بلاد السودان وغيرها.

وأما مدينة زويلة ابن خطاب فمنها إلى صرت خمس مراحل كبار، ومدينة زويلة مدينة صغيرة وبها أسواق ومنها يدخل إلى جمل من بلاد السودان. والمسافرون يأتونها بأمتعة من جهازها وجمل من أمور يحتاج إليها، والعرب تجول في أراضيها وتضر بأهلها قدر الطاقة.

وكل هذه الأراضي التي ذكرناها ملك بأيدي العرب فمن قصر العطش (مكان في فزان) إلى قافز هي لناصرة وعميرة وهما قبيلتان من العرب. ومن قافز الى طلميثة الحالك هي لقبيلة من البربر متعربين يقال لهم مزاتة وزناتة وفزارة وهم يركبون الخيل ويعتقلون الرماح الطوال ويحمون تلك الأرض عن العرب أن تدوس ديارهم ولهم عزة ونخوة وجلادة». (الإدريسي، ١٩٦٩ : ٢-١٣٣)[٧].

ولعل من الضروري أن نتوقف عند نص الإدريسي مؤكدين كل النقاط التي هي ذات صلة بقضية التدفق العربي إلى فزان بعد مجيء العرب الهلاليين إلى المغرب. فاستنادا إلى الإدريسي، فإن عددا من المجموعات العربية، مثل ناصرة وعميرة (فروع من القبائل العربية لبني سليم)، قد هاجرت جنوبا إلى صحراء ودان وخزان مقاسمين تلك الأصقاع مع السكان البربر. ومن ناحية أخرى، وعلى الرغم من أن العرب ربما كانوا هم القبائل المسيطرة في فزان على أيام الإدريسي، فمن المؤكد تماما بأنهم قد دخلوا في منافسة شديدة مع البربر هناك. ويبدو من المحتمل جدا إن لم يكن من المؤكد، بأن التأثير العربي في فزان كان قد ارتبط مع سيل المهاجرين العرب الذين تدفقوا إلى هذه المنطقة بعد اندفاع الهلاليين العرب. ولهذا فليس هناك أدنى شك أن العرب في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي كانوا قد ساهموا مساهمة أساسية في تشكيل العنصر البشري في فزان، من خلال استقرارهم وامتزاجهم مع البربر (Brunschving, 1954:24).

والذي يبدو أن العرب الهلاليين كانوا قد اندمجوا مع البربر في منطقة فزان إلى درجة جعلت من الصعوبة بمكان إقامة تمييز نسبي بينهم. ولهذا السبب لم يستطع الإدريسي في عصره التمييز بين عرب فزارة وبربر مزاتة (فرع من قبيلة لواته البربرية) في فزان، بل اعتبر كليهما «بربرا متعربين».

(الإدريسي، ١٩٦٩ : ١٣٣). وعلى أية حال، فإن هذا الارتباك لا يمكن أن يُحل إلا إذا دققنا بإمعان الأصل الحقيقي لأولئك «البر بر المتعربين». فمن المعروف أن مزاتة كانت إحدى عشائر قبيلة لواتة البر برية (ابن خلدون جـ٦، ١٩٦٧-١٩٦٩ : ١٧٩، ٢٣٥). أما بالنسبة لفزارة فقد كانوا إحدى عشائر قيس بن عيلان من غطفان (عرب عدنانية) (المبرد، ١٩٣٦ : ١) وانضموا إلى بني هلال أثناء تقدمهم إلى المغرب خلال القرن ٥هـ/١١م، وبقي معظمهم مع بني سليم في مناطق برقة وطرابلس (ابن خلدون جـ٦، ١٩٦٧ - ١٩٦٩ : ٣٦)، (القلقشندي، ١٩١٦ - ١٩١٩ : ١٢٧). ويبدو أن عدداً من العرب الفزاريين كانوا قد تقدموا من الشمال مع بني سليم أثناء تدفقهم جنوباً. وفي فزان استقروا وامتزجوا مع السكان المحليين من البر بر، هذا الاندماج الذي كان سبباً لاضطراب الإدريسي في محاولته للتعرف على أصول القبائل العربية والبر برية في فزان. وهكذا يمكن القول أن رواية الإدريسي - رغم ما جاء فيها من التباس بشأن أصول القبائل العربية والبر برية - فإنها تعطينا أفضل صورة عن الاختلاط العربي - البر بري في فزان اثر الهجرة الهلالية في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي.

كانت نتيجة الاندفاع بين القبائل العربية الهلالية والبر بر في القرن ٥ هـ/١١م هو تشرب قبائل هوارة البر برية بمقدار كبير من الدماء العربية، الأمر الذي أدى إلى تعريبهم بصورة عملية. وعلاوة على ذلك، ونتيجة للتدفق العربي الهلالي، يظهر أن قبائل هوارة كانت قد أزيحت باتجاه الجنوب خاسرة مواقع استقرارها لصالح العرب. ويبدو أن هذه الناحية بالذات قد أثارت انتباه الجغرافيين العرب في العصر الوسيط، فجعلوا مناطق فزان تحت النفوذ العربي. (الادريسي، ١٩٦٩ : ١٣٣)، (ابن سعيد، ١٩٧٠ : ١٢٧).

على أن محصلة ضغط القبائل العربية الهلالية على السكان الأصليين في منطقة فزان في منتصف القرن ٥هـ/١١م كان شيئاً جديراً بالاعتبار. إذ أن عدداً من المجموعات الرعوية، ومن بينها تلك التي يعتقد أنها جاءت نتيجة للتزاوج العربي - البر بري في المنطقة، يبدو أنها قد دفعت باستمرار نحو الجنوب بموجات متتابعة من الهجرات، حتى وصلت إلى الحد الجنوبي للصحراء المفتوحة. وأعتقد أن هذه العناصر قد جاءت بشكل أساسي من هوارة المتعربة لأنهم كانوا يشكلون السكان الأصليين لفزان في ذلك الوقت.

وفي خلال القرن ٥هـ/١١م يظهر أن العرب البدو والقبائل البر برية كانت قد انتشرت في فزان جنوباً وغرباً عبر الصحراء. ذلك لأن فزان، كما أشرنا سابقاً، كانت منطقة صحراوية مفتوحة تساعد على تنقل القبائل البدوية بسهولة بحثا عن الماء والمرعى الخصب، وأن الصحراء الوسطى، التي تقع إلى الغرب من صحراء فزان، تختلف عن الصحراء الشرقية من حيث توفر المراعي والكلأ الكافي لإعاشة الحيوانات إلى حد ما، وأن مجموعاتها الجبلية وبخاصة تبستي وأير Air وجبال هكار، كانت تحتوي على ينابيع ومراعي دائمة طوال السنة[٨] ولذلك ليس من الغريب أن تتحرك بعض العناصر الفزانية، التي وقعت تحت التأثير والضغط العربي في القرن ٥ هـ/١١م باتجاه الجنوب والغرب. وهذا التحرك يمكن إدراكه في ضوء دراستنا للمصادر العربية الوسيطة.

فإلى الجنـوب من فزان وإلى منـاطق كوار، التي تحتـل القسم الجنـوبي الشـرقي من الصحـراء الـوسطى، نجـد أن هنـاك ما يؤكـد عمليـة التغلغـل العـربي. فاستنـاداً إلى الإدريسي (في القـرن ٦هـ/١٢م)، كان العـرب في منـافسـة شديـدة مع سكـان المنطقـة حول مصـادر الميـاه. (الإدريسي، ١٩٦٩ : ٤١) أمـا ابن سعيـد، أحـد جغرافيي القرن ٧هـ/ ١٣م، فقد سجل لنا معلومات ذات صلة بالعناصر الفزانية التي وصلت كوار. فهو يخبرنا «بأن بلاد كوار هم سودان مسلمون . . وفي شرقي كوار بحـيرة السـول وكثـيراً ما كانت تقـع الفتن بين سكـان كوار وبـرابرة الصحراء وأعراب فزان على هاتين البحيرتين (بحيرة كوار وبحيرة الـسول) (ابن سعيد، ١٩٧٠ : ٤١).

وإذا ما أخـذنـا بروايـة ابن سعيـد فإن ذلك يعني أن العناصر الفزانية العربية ـ البر برية كانت قد توغلت إلى مناطق كوار، مقاسمة ومنافسة سكانها حول مناطق الماء والكلأ. ومن الضروري أن نشير هنـا إلى ناحيـة أخـرى من المـؤكـد أنهـا ساعـدت العناصر الفزانية على القيام باتصال مع مناطق كوار وسكـانهـا، وحتى منـذ فترة مبكـرة. فالجهـد العربي العسكري كان قد امتد إلى حدود مناطق كوار كما سجلت لنـا ذلـك المصـادر العـربيـة الوسيطة[٩]. ولكن المهم جدا في مسألة اتصال العناصر الفزانية مع منطقـة كوار هو العـامـل الاقتصـادي، وبشكـل أكثـر تحديـداً النشـاط التجـاري. ذلـك أن التجـارة الصحراوية بين المغرب ومناطق الـسودان عبر صحراء فزان ـ كانت قد لعبت دورا أساسيا في زيادة انتشار العرب في فزان باتجاه الجنوب، كما سنفصل هذا فيما بعد.

وأخيراً لا بد من القول بأن انتقال العناصر الفزانية العربية ـ البر برية باتجاه الجنوب كان قد أدى إلى أن تأخـذ كوار شكـلا معينـا. ذلـك لأن دخـول العنـاصر الفزانية إليها قد أدى إلى اعتناق السكان السود في مناطق كوار الإسلام، وتبنيهم لعدد من السمات الحضارية الجديدة للقادمين من الشمال، سواء أكان الأخير ون مهاجرين أم تجاراً [١٠].

أمـا فيـما يخص المنـاطق الـواقعـة إلى غرب فزان، والتي شهـدت أيضا وصول العناصر العربية ـ البـر بـريـة الفـزانية ولقائها ببر بر أزقار Azgar في الصحراء الوسطى، فقد كتب الإدريسي عن أزقار في القـرن ٦ هـ/١٢م وذكـر بأن قبـائـل بربـريـة تستـوطن المنـاطق المتاخمة لفزان، وهي مناطق غنّية بالمياه والمـراعي (ابن سعيـد، ١٩٧٠ : ٢٧) . وأن الظـروف الجغـرافيـة في منـاطق أزقار ربما جذبت العناصر الفـزانيـة، وبخـاصـة منـذ أن وقعت منـاطقهم تحت تأثـير الضغـط السكاني الهلالي في منتصف القرن ٥هـ/١١م. وقد يعزز افتراضنا هذا رواية الجغرافي العربي ابن سعيد الذي سجل في القرن ٧هـ/١٣م قوله:

«وفي جنوب فزان وودان مجالات أزكان (أزقار) وهم برابرة مسلمون بالقرب من جبل طنطة، وفي شمالـه عيـون تنحـدر منـه وتحتها مروج كثيرة، يرتاده البرابرة والعربان وتقع الحرب عليه» (ابن سعيد، ١٩٧٠ : ٢٧).

وهكذا فمن المحتمل جداً أن العرب الذين أشار إليهم إبن سعيد في نصه كانوا من أصل عربي

هلالي، طالما أن العرب الهلاليين كانوا يمثلون العنصر الوحيد الذي وصل إلى تلك المناطق في ذلك الوقت، وربما كانوا أيضا خليطاً من عرب وبربر من أصول فزانية. ولهذا فمن المعقول أن نقترح أن الوجود العربي في مناطق أزقار في الصحراء الوسطى لا بد أنه أدى إلى اختلاط الأخيرين بالعرب، وبالتأكيد إلى وصول الإسلام إلى تلك المناطق (إبن سعيد، ١٩٧٠ : ١٢٧).

أما إذا ما انتقلنا إلى النشاطات العربية التجارية في صحراء فزان، فإنها بدون شك كانت تمثل عاملا آخر مهماً في جعل فزان مركزاً للالتقاء بين العرب والبربر واختلاطهم وانصهارهم معاً، وان هذا كله كان أساسا لانتشارهم في فزان باتجاه الجنوب والغرب.

إن أقدم إشارة واضحة وصلتنا عن النشاط التجاري العربي في صحراء فزان وعن أرض وسكان تلك المناطق، نجدها عند اليعقوبي (القرن ٣هـ/٩م) في كتابه البلدان، حيث يشير إلى أن الظروف التجارية في فزان كانت قد جذبت العرب والمسلمين لتوسيع نشاطاتهم في الصحراء. فاليعقوبي في كلامه عن مدينة زويلة (عاصمة صحراء فزان) والدور الذي لعبته كمركز تجاري، يقول:

«ووراء ذلك بلد زويلة مما يلي القبلة وهم قوم مسلمون أباضية ويخرجون الرقيق السودان من المير يين والزغاويين والمرويين وغيرهم من أجناس السودان منهم وهم بسيوفهم، وبلغني أن ملوك السودان يبيعون السودان من غير شيء ولا حرب. . وبها أخلاط من أهل خراسان ومن البصرة والكوفة. ووراء زويلة على خمس عشرة مرحلة مدينة يقال لها كوار بها قوم من المسلمين من سائر الأحياء أكثرهم بربر وهم يأتون بالسودان[١١] وبين زويلة ومدينة كوّار وما يلي إلى طريق أوجلة وأجدابية قوم يقال لهم لمطة أشبه شيء بالبربر وهم أصحاب الدرق اللمطية البيض». (اليعقوبي، ١٨٢٢ : ٣٤٥).

إن دراسة متفحصة وعميقة لنص اليعقوبي تقودنا إلى استنتاجات عديدة. إذ يشير النص إلى حقيقة أن التجار العرب في المشرق، وبشكل خاص في العراق، قد أداروا النشاطات التجارية في زويلة، وبالذات تجارة الرقيق. وأنهم قد مارسوا هذه الأعمال التجارية بالتعاون مع التجار البربر المسلمين، الذين عاش معظمهم في مدينة كوار. وبهذا يمكن الاقتراح بموجب رواية اليعقوبي هذه بأن تجارة الرقيق مع بلاد السودان كانت تدار أساسا من قبل التجار العرب والتجار البربر الأباضية[١٢] الذين يظهر بأنهم جلبوا الرقيق من بلاد السودان إلى زويلة، ثم قاموا بتصديره عبر الصحراء إلى بلاد المغرب. أما بالنسبة للمطة الذين يبدو بأنهم قد استوطنوا المنطقة الواقعة بين كوار وزويلة ومما يلي ذلك باتجاه أوجيلة وأجدابية، فيظهر أنهم كانوا قد لعبوا دوراً مهما في تجارة الرقيق. أو ربما لعبوا دور الوسطاء التجاريين بين زويلة في الشمال وبلاد السودان في الجنوب. ولهذا فإنه من المحتمل تماما أن أولئك البربر من لمطة كانوا على اتصال مع التجار العرب في صحراء فزان.

وعلى أية حال، يجب أن نتذكر بأن لمطة لم تكن المجموعة البربرية الوحيدة التي كانت منشغلة في تجارة الرقيق مع العرب في صحراء فزان، فقد كان لقبائل هوارة البربرية نصيبها في هذه التجارة أيضا، منذ أن كانوا يحتلون صحراء فزان إلى جانب لمطة منذ تاريخ مبكر [١٣].

وفي القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي لاحظ البكري وجود قبائل هوارة في المنطقة التي تقع جنوبي طرابلس باتجاه الصحراء. كما لاحظ أن مدينة زويلة قد استمرت في نشاطها التجاري حيث يقول:

«ويجلب من زويلة الرقيق إلى ناحية افريقية وما هنالك ومبايعتهم بثياب قصار حمر». (البكري، ١٨٥٧: ١١-١٢). فالواضح من نص البكري أن مقاطعة فزان احتفظت بنشاطها كوسيط تجاري في تجارة الرقيق بين المغرب والسودان خلال القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، ويبدو أن هوارة كانت قد شاركت في هذا النشاط أيضا. فالإدريسي في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي على سبيل المثال، يشير إلى أن زويلة كانت منفذا تجاريا إلى بلاد السودان، وأن سكانها كانوا خليطاً من البر بر ومن هوارة الذين مارسوا التجارة هناك. (الإدريسي، ١٩٦٩: ٢-١٣٣)[١٤].

إن الاتصال التجاري في صحراء فزان ومناطق السودان في الجنوب كانت عاملاً مهما جداً في عملية تغلغل العرب ـ المسلمين هناك، وبخاصة في مناطق كانم وبرنو. وكانت تجارة الرقيق على وجه الخصوص هي التي شجعت العناصر الفزانية على الاتجاه جنوبا، حيث التقوا بالعناصر السودانية. ويبدو من المعقول تماماً أن نفترض بأن وجود التجار العرب ولمدة طويلة في بلاد فزان ربما شجع على التوغل في مناطق السودان في الجنوب. وان هذا الافتراض يتماشى مع رواية البكري التي تشير إلى وصول بعض العناصر العربية إلى منطقة كانم منذ فترة مبكرة (البكري، ١٨٥٧: ١١).

ومن المعلومات المتناثرة التي وصلتنا من الكتاب العرب في العصور الوسطى يمكن الافتراض بأن وصول التجار ورجال الدين العرب إلى مناطق كانم في بلاد السودان كانت سببا في إسلام سكانها من السودانيين الزغاويين[١٥]، كما يمكن الافتراض بأن ذلك قد حدث خلال القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي. (مؤلف مجهول، ١٩٥٨: ١٤٦) إذ يروي ابن سعيد بأن الإسلام كان قد دخل كانم خلال ظهور سلالة سيف بن ذي يزن هناك. (ابن سعيد، ١٩٧٠: ١٩٥)[١٦].

وفي خلال تاريخ فزان نجد أن هناك اتصالاً تجارياً مستمراً بينها وبين الصحراء الوسطى والغربية (من صحارى افريقيا). وعن هذا الاتصال نجد أن الجغرافي العربي ابن حوقل يكتب لنا بأن بلاد الزنج يفصلها عن المغرب «براري عظيمة ورمال كانت في سالف الزمان مسلوكة وفيها الطريق من مصر إلى غانة فتواترت الرياح على قوافلهم ومفردتهم فأهلكت أكثر من قافلة وأتت على مفردة وقصدهم أيضا العدو فأهلكتهم غير دفعة فانتقلوا عن ذلك الطريق وتركوه إلى سجلماسة» (ابن حوقل، ١٩٣٨: ٣٩).

وعلى الرغم من هذا الانقطاع في استعمال الطريق التجاري الصحراوي الذي يشير ابن حوقل إليه منذ القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي فإن هذا لا يعني انقطاع الصلة التجارية والبشرية بين صحراء فزان والصحاري المجاورة لها في القرون التالية (الإدريسي، ١٩٦٩: ٣٩). وإن وجود مثل

هذه العلاقات التجارية بين صحراء فزان والصحراء الوسطى، تجعل لدينا سببا معقولا للافتراض بأن تلك العلاقات ربما قادت إلى تسرب بعض العناصر الفزانية (وبما فيها العربية) إلى مناطق الصحراء الوسطى.

وأخيرا، يتوضح لنا من السرد السابق صحة ما افترضناه من أن فزان كانت مركزاً للقاء بين القبائل العربية والبدوية منذ دخول العرب إليها في القرن الأول الهجري / السابع الميلادي. وقد حدث هذا التفاعل بفعل عوامل عديدة أبرزها اندفاع القبائل العربية إلى صحراء فزان مدفوعة بدوافع دينية وبشرية وسياسية واقتصادية. وفي هذا الاندفاع اختلطت القبائل العربية بالقبائل البربرية في صحراء فزان ومن ثم انطلقت العناصر الفزانية (العربية ـ البربرية) جنوبا وغربا، مدفوعة في هذه المرة بدوافع جغرافية وبشرية وتجارية، فكانت فزان وفقاً لهذا التصور قاعدة لانطلاق بشري كان له اثر مهم في التاريخ العربي الإسلامي في القارة الإفريقية.

الهوامش

١) زويلة هي أهم مدن صحراء فزان، بل يمكن اعتبارها عاصمة لها.

٢) مما تجدر الإشارة إليه أن العامل الديني كان من العوامل الأولى والمهمة في تسرب العرب إلى الصحراء المغربية، إلا أنه لم يجر التأكيد عليه في هذا البحث لأنه يحتاج إلى بحث مفصل ومنفصل.

٣) نود التنبيه إلى أن طبيعة العرب الصحراوية المكتسبة من بيئتهم الأولى التي خرجوا منها هي التي شدتهم شداً قويا إلى جوف الصحراء المغربية، فلم يقصروا نشاطاتهم وتوسعهم على السواحل الخصبة في شمال إفريقيا مثلما فعل كثير من الغزاة قبلهم، وإنما أوغلوا في الصحراء بقدم ثابتة، ولم يقفوا أمام رملها مترددين خائفين.

٤) للتفاصيل أنظر أبوزكريا يحيى بن ابي بكر، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق وتعليق إسماعيل العربي (الجزائر، ١٩٧٩) ص ص ٤ ـ ٤٦.

٥) محمد بن عبد العزيز الإدريسي، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق دوزي ودي غوية (أمستردام، ١٩٦٩) ص ٧ ـ ٣٨، انظر أيضا: G. Nachtigal, Sahra and sudan: Triopoli and Fezzan, Trans. From the original Germany by A.G.B. Fisher (London, 1974), P. 148.

ويمكن الاشارة إلى أن قيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب في القرن ٤ هـ/ ١٠م وتمكنها من القضاء على الدول المستقلة فيها ـ كدولة الأغالبة والدولة الرستمية الأباضية ـ قد دفع بالكثير من الخوارج إلى الفرار من وجه الفاطميين إلى الصحراء ولا سيما فزان.

٦) لقد اندفعت القبائل العربية الهلالية في مصر باتجاه المغرب بفعل عوامل سياسية واقتصادية. لمزيد من التفاصيل عن أسباب ونتائج هذه الهجرة انظر: السجلات المستنصرية، تحقيق عبد المنعم ماجد (القاهرة، ١٩٥٤) ص ٤٣، د. راضي دغفوس، «العوامل الاقتصادية لهجرة بني هلال وبني سليم من مصر». **المؤرخ العربي**، العدد العشرون (١٩٨١) ص ص ١٣ ـ ٤٥.

٧) ومما يذكر هنا أن عبارات العرب الواردة في نص الإدريسي يقصد بها الأعراب ـ لا العرب، لأن العرب ـ كما عرفهم التاريخ ـ كانوا بناة حضارة يبنون البلاد ولا يخربون.

٨) للتفاصيل أنظر: F.R. Road, People of the Veil (London, 1926), PP. 2-3.

٩) انظر الإدريسي، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص ص ٨ ـ ٣٩ ، ابن سعيد ، كتاب الجغرافية، ص ١١٤ حيث يقول: «وقد تخلق أهل كوار بأخلاق البيض في لبس الصوف والقطن والبرود».

١٠) الإدريسي، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص ص ٥ ـ ٣٦، انظر ايضا: Norris, The Tauregs, 1975, p.20.

١١) ان تجارة السودان ـ اي الرقيق الأسود ـ قد لعبت دوراً مهما في الحياة الاقتصادية للدولة العربية ـ الإسلامية منذ العصر العباسي.

١٢) ان وجود الخوارج الأباضية في صحراء فزان يعود إلى النصف الثاني من القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي. إذ يتبين لنا من المصادر العربية الوسيطة أن الخوارج بعد اندحار حركتهم في طرابلس والقير وان على يد الحاكم محمد بن الأشعث قد انسحبوا إلى الصحراء، واستقر قسم منهم في مدينة زويلة عاصمة فزان.
انظر ابن عذارى المراكشى ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج ١، ص ٧٣.

١٣) من المعروف أن مناطق قبائل هوارة البر برية الرئيسية هي اقليم طرابلس. أما عن تاريخ حركتها إلى فزان وأنه كان مرتبطا مع تغلغل العقيدة الأباضية في الصحراء. ففي القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي كانت هوارة قد حققت اندفاعات سريعة باتجاه فزان. وقد أخبرنا الإدريسي بأن بني الخطاب الهواري الأباضي كانوا قد استقروا في زويلة، التي أصبحت عاصمة لمملكتهم في منطقة فزان في بداية القرن ٤ هـ/ ١٠م. الإدريسي، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. ص ص ٧ ـ ٣٨. كما يذكر ابن خلدون أن هوارة كانت قد اندحرت على أيدي العرب في الفتوحات الأولى، ثم اعتنقت العقيدة الأباضية وانتقل قسم من هوارة الرعاة منذ فترة مبكرة جدا واستقروا على مقربة من لمطة كما أشرنا إلى ذلك أعلاه. انظر أيضا ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ٢، ص ٢٨٥.

١٤) ويشير الإدريسي أيضا إلى أنه رغم استمرار نشاط زويلة التجاري مع السودان على أيامه، إلا أن هذا النشاط قد تقلص بسبب الغزوة الهلالية إلى الشمال، تلك الغزوة التي حدثت في منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، وذلك بزحف مجموعات كبيرة من القبائل العربية في مصر باتجاه المغرب، تاركة آثارها على الحياة السياسية والاقتصادية. كما أدت إلى زحف بعض المجموعات الهلالية إلى صحاري فزان وبالتالي نشوء صراعات طويلة بين العرب الهلاليين وسكان فزان على مناطق الاستقرار الرئيسية فيها.
الإدريسي، كتاب نزهة المشتاق واختراق الآفاق، ص ص ٢ ـ ١٣٣.

١٥) إن من أولى الاشارات التي وصلتنا في الكتب العربية عن كانم وسكانها هي ما جاء في كتاب التاريخ لليعقوبي الذي ذكر بأن بلاد كانم بلاد استوطنت من قبل قوم يسمون بزغاوة. اليعقوبي، كتاب التاريخ، تحقيق M.Houtsma (ليدن، ١٨٨٣) ج ١، ص ٢١٩. انظر أيضا أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك (القاهرة، ١٩٧١) ج ١، ص ٢٠٢.

١٦) ولمزيد من التفاصيل عن أسرة سيف بن ذي يزن في كانم وإسلام تلك المنطقة منذ القرن ٥ هـ/ ١١م انظر:
J.S Trimingham, A History of West Africa (London, 1962), pp. 110-26; A.Smith, The Early States of Central Sudan in: A.Ajayi and M.Crowder (eds.) History of West Africa (London, 1971), pp. 170 - 83; Lane, Progress de L'Islam et Changement Politique an Icamem du XIe au XIIIe Siécle, **Journal of African History,** xxl, 4 (1978), pp. 497-505.

المراجع العربية

ابن حوقل، أبو القاسم — **صورة الأرض**، تحقيق J.H. Incramers ليدن : ١٩٣٨ .

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد — **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر**، بيروت : ١٩٦٧ ـ ١٩٦٩ .

ابن سعيد، علي بن موسى المغربي — **كتاب الجغرافية**، تحقيق اسماعيل المغربي، بيروت : ١٩٧٠ .

ابن عبد الحكم — **فتوح مصر والمغرب**، ليدن : ١٩٢٠ .

أبوزكريا، يحيى ابن أبي بكر — **كتاب سير الأئمة وأخبارهم**، تحقيق وتعليق اسماعيل العربي، الجزائر: ١٩٧٩ .

الإدريسي، محمد بن عبد العزيز — **كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، تحقيق دوزي ودي غويه، امستردام : ١٩٦٩ .

البكري، أبوعبيد الله بن عبد العزيز — **كتاب المسالك والممالك**، تحقيق دي سلين (M.G.De Slane) ، الجزائر : ١٨٥٧ .

دغفـوس، راضـي — «العوامل الاقتصادية لهجرة بني هلال وبني سليم من مصر» **المؤرخ العربي**، العدد العشرون : ١٩٨١ .

السجلات المستنصرية — تحقيق عبد المنعم ماجد، القاهرة: ١٩٥٤ .

الطبري، أبوجعفر محمد بن جرير — **تاريخ الرسل والملوك**، القاهرة : ١٩٧١ .

القلقشندي، أبوالعباس أحمد بن علي — **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، القاهرة: ١٩١٦ ـ ١٩١٩

المبرد، محمد بن يزد — **نسب عدنان وقحطان**، القاهرة: ١٩٣٦ .

المراكشي، ابن عذارى — **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، بيروت : ١٩٦٧ .

مـؤلـف مجهـول — **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، الاسكندرية : ١٩٥٨ .

مـؤنس، حسيـن — «فزان ودورها في انتشار الإسلام في افريقيا»، **مجلة كلية آداب الجامعة الليبية**، العدد الثالث، ١٩٦٩ .

اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب — ـ كتاب التاريخ ، تحقيق M.Houtsma ليدن : ١٨٨٣ .

ـ كتاب البلدان ، تحقيق دي غوية ، ليدن : ١٨٢٢ .

المراجع الاجنبية

Brunschving R. — Un texte Arabe du ixe sicécle Intéressant le Fezzan", **Revue Africaine,** No.8 1954.

Lane — "Progress de L'Islam et changement Politique au icamen du xie au XIIIe Siécle" **Journal of Africa History,** XXI, 4 1978, PP. 497-505.

Nachtigal, G — **Sahara and Sudan: Triopoli and Fezzan,** Trans from the original Germany. By A.G.B. Fisher. London: 1974.

Norris, H.T. — **The Tauregs,** West Minister: 1975.

Road, F.R. — **People of the Veil.** London: 1926.

Smith, A. — "The Early States of the Central Sudan," in: J. Ajayi and M. Crowder (eds.) History of **West Africa. London:** 1971.

Trimingham, J.S. — **A history of West Africa.** London: 1962.